فراشات بيضاء

رواية قصيرة

طارق عبد الوهاب



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **رواية فراشات بيضاء**

المـــــؤلف : طارق عبد الوهاب

رقم الايداع/ ٢٠١٧/١٦٠٠٩

الطبعة الأولى ٢٠١٧



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

إهداء ...

إليها ...

حلماً راودني .. ولم يتحقق !!

طارق



استهلال

أي تتطابق بين أحداث الرواية والواقع هو محض مصادفة وليس للرواية أية علاقة بالسيرة الذاتية للمؤلف .

المؤلف

كان ضوء الغرفة خافتاً ...

ربما لم يضيئوا الأنوار بعد ، أو لعلني لم أعد أرى جيداً بعد ما حدث .

ممداً فوق « الترولي » دفعتني تلك الأقدام المتعجلة إلى الأمام عبر الممر الضيق ، يخترقني الهواء البارد فتسري في جسدي قشعريرة مجنونة ، والرجل الذي لا يمنحني إلا ظهره العريض يصرخ بكل من يعترض الطريق :

« سكه لو سمحتم ... »

عند النهاية المغلقة بباب ذو شراعة علوية من زجاج توقف . عيناي تبحلقان في سقف بدا ملطخاً برسوم سريالية ، حلقي يشرخه الجفاف وأطرافي متجمدة كألواح من الثلج ، حين أميل إلى اليمين أو اليسار تحاصرني الحواجز المعدنية .. ولاشيء ينبيء بالآتي .

لحظات مرت لا أدرك قدرها طال بعدها الصمت فأردت التساؤل ، ثقل لساني ، لكن أحدهم فتح الباب عنوة فجذبني الرجل إلى الأمام ثانية .

قال آخر :

« تحت النور بالضبط »

توقف بي عند المنتصف .. وكان الضوء خافتاً !

حين تقلصت مقلتاي محاولاً تدقيق النظر تبينت تلك الدوائر المضيئة تتراص على حافة قرص من المعدن الصديء كعيون كائن خرافي يتدلى من السقف ، يبدو على استعداد لالتهامي، لا شيء سواها يرمقني ويتربص بي ، تتقارب الجدران من حولي ويغمرني سكون مهيب .

هل أنا في غرفة تحنيط فرعونية محاطة بالأسرار ؟ ..

أم أنني.. أتجهز للدفن ؟! ..

تركني الرجل ـ ذو الظهر العريض ـ وغادر الغرفة مغلقاً الباب دون أن أرى وجهه . التقطت أذني همهمات تأتي من الركن ورائي ، بعضها كان أنثوياً ناعماً والآخر لا أعلم أكان لرجل .. أم .. آلة .. أم لجنس آخر . كنت أحتاج لبعض الإجابات . رأسي تغزوه جيوش

من النمل ، ذاكرتي مشوشـه و مرتبكـه ، أحـاول تجميـع قصاصـات الرؤى المتطايرة والأحداث الفائتة فتنفلت ، تفر مني وتروغ ، أحاول مغادرة ذلك الجسد المنبسط في وضع أفقي لألقـي عليـه نظـرة مـن الخارج ، علها تمنحني بعـض الومضـات ، تبـوء كـل المحـاولات بالفشل .

محاصر أنا هنا .. فلأنتظر المخلص !

هل هو ذلك الشخص الذي امتـدت يـده قبـل وجهـه تتحسـس ذراعي ؟ ...

واجهني مخفياً أنفه وفمه وراء تلك الكمامـة الفيروزيـة ، عينـاه محاطتان بنظارة سميكة لا تبعـث عـلى الاطمئنـان ، ظلـت أصـابعه تضغط على مرفقي بشدة ، يحاول استنفار العروق للظهور ، خبطه .. اثنتان .. ثم أحكـم قبضـته عـلى منتصـف سـاعدي ، نـادى صـاحبة الصوت الأنثوي :

« جهزي لي الحقنة »

وسكت !!

كنت أتمنى أن يقول لي شيئاً ، يقرأ خاطري .. فيخبرني لمـاذا أنـا هنا ؟ ولماذا أشعر بالبرد ؟ هل سأكون بخير ؟ و لماذا فقدت القـدرة

على إعطاء الأوامر لأطرافي كي تتحرك ..؟ لم يبد لي أنه يعلم شيئاً عن ذلك المجهول الذي يكتنفني ، وأدركت حين غرس السن المدبب المثبت بين أصبعي يده في وريدي أنه حتماً واحد منهم ..

أجل ...

هو واحد منهم ...

سيخط بمشرطه حين أغيب عن الوعي شقاً طولياً في صدري ، ينتزع القلب ، ثم يزيد الشق اتساعاً حتى ينزع تلك الأحشاء بداخلي، يغسلها جيداً بالماء المعطر ثم يلقي بها في أوانيه الكانوبية الأربعة ، يسكب القطران على لفائفه ويحشو بها الداخل ، يمسح بزيوته المقدسه على جسدي ، ويلفني بشرائطه الطويلة من الرأس حتى أسفل القدمين ، يقرأ ترانيمه وتعاويذه السحريه كي لا تضل الروح طريقها إلى مملكة السماء .. وحين ينتهي ـ حتماً ـ سأعرف كل الإجابات .

***

« أليس غريباً أن تجتمع تلك المصادفات في وقت واحد ! »

فكرت ...

قلت للسائق :

- خفف السرعة من فضلك .

اعتذر ، ورفع قدمه اليمنى قليلاً عن « دواسة البنزين » .

لا أستطيع التركيز حين تسير الأمور بشكل سريع ، أحتاج الوقت لكي أفهم ، و المشاهد حين تتوالى ببطء ستمكنني من الحكم بشكل سليم. شيء ما كان يدور في الموقع منذ الصباح ولا يرتاح له صدري. من المفروض أنني من يعطي التعليمات للجميع ، كل شيء وضعت له مكانه اللائق في الجدول الزمي للمشروع ، هذه الرأس الصغيرة فوق منكبي تحتوي كل التفاصيل ، التصميمات ، الحسابات ، التكاليف ، مدة التنفيذ ، كل شيء ، كل .. شيء ! ولكن بعض الأرقام كانت غريبة ...

نتائج الاختبارات غير منطقية ...

وشيء ما لم يكن يسير في الاتجاه الصحيح !

قبل أن أغادر مكتبي جمعت كل الأوراق التي تبعث على الشك في حقيبتي ، رتبتها حسب الأهمية حتى أعيد قراءتها في الطريق ، طلبت كوباً من القهوة كي أتمكن من البقاء متيقظاً لأطول وقت ممكن . لا أحب أن أسيء الظن بأحد ، الكل بالنسبة لي مخلصون ونظيفي اليد .

غصت في مقعدي عاقداً كلتا يدي حول جبهتي ، أسفل عيني صورة دسستها تحت « بنورة » المكتب لطفلتي الصغيرة ، أعشقها كثيراً تلك البنت ، ألهو معها حين أعود إلى البيت فيزول كل العناء ويتبخر الألم من صدري . هي ـ ربما ـ الحسنة الوحيدة لعلاقة مليئة بالتوتر والعثرات . لأجلها أتحمل ، ولولا وجودها في حياتي لتغيرت كثير من المعطيات والنتائج .

النتائج ... النتائج !!

أجل ..!!

كان من المفروض أن تكون مغايرة .

من تراه قد تلاعب بها ؟!!

أرحت رأسي على زجاج النافذة وأغلقت عيني .

أعلم كم أن الطريق طويل ومليء بالانحناءات ، يبدو في كثير من الأحيان كأفعى مرقطة ببقع سوداء تتلوى لتعصر فريستها ، في معظم مراحله لا تضيئه المصابيح كالمعتاد ، أخبروني قبل المجيء أنه يكون خطيراً مالم تكن منتبهاً .. لكنني فضلت أن أترك معالجة القلق الناتج عن الرحلة خلال الليل لسائقي الخاص . أكتفي بمتابعة قرص الشمس حين يغوص خلف الحقول عند الغروب .. فدون ذلك لا

شيء يستحق المشاهدة !!

عندما يغشى الظلام « كابينة »السيارة سأميل إلى الخلف وأحاول جاهداً أن أنام ، اهتزازات العجلات على الأسفلت تعبث بمعدتي ، أكره التقيؤ ، والنوم عندي هو الحل لكثير من المشكلات . عند الوصول سيوقظني « ثابت » بالتأكيد بلطفه المعتاد قائلاً :

« البيت يا باشمهندس »

« الحمد لله على السلامه »

عندها .. تنتهي المخاوف ...

فقط .. حتى تعود في مساء يوم آخر !

***

خفت تلك القبضة القوية قليلاً حتى أرخت يدي على معدن الطاولة البارد .

قالت عينا الرجل :

« إهدأ ... »

وكان قلبي ينتفض بصورة يهتز معها جدار صدري بشكل سريع وغريب . أشعر به كالمطارد الذي يهرب من أشباح ليلية مخيفة و

أسمع وقع دقاته بأذني . لم تنتابني هذه الحالة من قبل . فاجأتني في الصباح لكنها لم تدم طويلاً .. حينها قال مشرف العمال :

- حضرتك محتاج للراحة !!

واصطحبني « لاستراحة المهندسين » خلف الموقع ، حمام دافيء، وكوب من العصير ، بعدها أصبح كل شيء على ما يرام . دق جرس الباب فأخبرت « عم سعيد » أن يفتح . أتاني صوته الهرم يخبرني في ضعفه المعهود :

- واحد طالب يتكلم مع حضرتك .

أجبته :

- يتفضل .

كان شاباً في مقتبل العمر ، يرتدي قميصاً تآكلت أطراف أسورته لكنه يبرز تفاصيل صدره العريض والبطن المقسم إلى عضلات بارزة أفقية بشكل دقيق .. مد يده يعرفني بنفسه :

- « محمود مسعود » .. طالب في كلية الطب .. وأسكن في الشارع المقابل لمشروع « البرج » .

قلت :

- أهلاً وسهلاً ...

لم يترك فرصة لمقدمات كثيرة ، كان على ما يبدو قد حفظ و راجع تلك الجمل السريعه التي أطلقها مراراً قبل أن يأتي . قال إنه وكل أهل الشارع سيقدمون تظلماً لرئيس المدينة ، فأرض المشروع ملكهم ، و« البرج » ـ المفترض إنشاؤه ـ محاولة مفضوحة للسطو عليهم .. أضاف أخيراً أنه من المستحيل أن يقوم أو يبنى إلا على جثثهم !! ...

كانت كلماته حاده ومفاجئه فأخبرته أن هذا الأمر أسمع به لأول مره . طلبت منه الهدوء وأن يجلس حتى أفهم . لسبب لم يقنعني قابل طلبي بالرفض ، تحولت لهجته إلى التهديد دون مبرر ، حاولت طمأنته أننا على كل حال في مرحلة البدايات ، نجهز السواتر والأسوار المحيطة بالمشروع ونقوم بعمل الجسات ، التنفيذ أمامه وقت ربما يطول ، وقد تكون هناك فرصة لتقريب المسافات بين كل الأطراف ...

قال في عنف :

– لن نسمح بأن تبدأوا أصلاً ...

وانصرف .. تاركاً لي كثيراً من الوجوم وبعض القلق يتسرب إلى داخلي ببطء .

***

جسدي الخائر يأخذ شكل الصليب ...

رغم حبي للمسيح ، والعذراء ، لم أتعمد أن يكون الأمر على هذه الصورة ، فأنا بالكاد أشعر بيدي وأقدامي !

أزاح الرجل ذو النظارة السميكة الكمامة عن فمه فبدت شفاهه قرمزية داكنة ، تحركتا ببطء آمرة إياي بأن أطمئن ، أو .. هكذا قرأت كلماتهما ، زحف الوشيش المصحوب بعاصفة ثلجية إلى داخلي رويداً .. رويداً .. بينما كانت الروح تنساق إلى الخارج مشدودة بطرف خفي . عاد اللون الفيروزي ليخفي نصف الوجه المنكفيء على طاولة العمليات . ارتدى الرأس قناع «أنوبيس» فانتابني الفزع . هو ليس الخوف من الموت أو الحساب .. بل المجهول .

فأنا لم أسرق .

لم أكذب .

لم أخن أو أغدر .

لم أظلم أحداً ...

ولم ألوث ماء « النيل » .

في المحكمة العلوية سأتمدد واثقاً حين يزنوا القلب ، ستثقل

موازيني ولاشك ، وستعلن على الملأ طهارتي . سأطأ على تراب الماس والياقوت والزبرجد ، وسأجد الحور العين مقصورات في الخيام ، ينتظرنني ، ليملأن حياتي بالبهجة والمتعة . لم أعشها قبلاً !! .. لم أكن سيداً مطاعاً في بيتي ، وهناك سوف أكون ! ...

تمتمت بحمد ربي إذ لم يطاوعني لساني أو فمي ، لم أسمع صوتي، التف حولي آخرون يرتدون نفس الأردية الخضراء وغطاءاً للرأس . قاموا بتغطيتي ، شرعت أيديهم في العمل بينما كان الوهن يتسلل إلى كل خلايا أعضائي ، أحسست بأجفاني ترتخيان ببطء وترفضان بقاء عيني مفتوحتين . اخترقتني رعشة قوية اصطكت لها أسناني .. فشعرت بالخجل . حاولت أن أبدو متماسكاً .

حسناً .. لا بأس .. أعرف أنها البداية لدخول ذلك النفق المظلم..

فلأستعد !

***

عند الظهر ...

حين أطلعت مدير الشركة على الأمر ...

لم يبد عليه الكثير من الاهتمام !!!

تململ قليلاً .. أشعل سيجاره الكوبي الغليظ .. نفث دخانه في الهواء .. ثم قال :

- المسألة لا تعنينا في شيء ..

أردف أن الشركة قدمت الكثير لكي تحصل على المشروع ، تنازلات ، عمولات ، سمسرة ، ونسب في الأرباح صرفت للبعض قبل أن يبدأ التنفيذ !! .. العقود وقعت ، والعينات للتربة تم أخذها للفحص ، ولابد أن تبدأ الأعمال بأقصى سرعة ممكنة ، سنحدد منسوب الحفر ثم نبدأ فوراً في عمل الأساسات ، لكنه حذر قبل مغادرتي :

- بهذا الشكل .. سنحتاج لتأمين الموقع جيداً !

قلت :

- فهمت .. طبعاً !

حملت لوحاتي .. حاسبي المحمول .. وهاتفي وأغلقت الباب من خلفي متمنياً أن يكون القادم على غير ما أتوقع .

لا أحب العمل في أجواء عكرة وغير مباشرة ، أعشق الخط المستقيم ، ولا تستهويني الأقواس والمنحنيات والأشكال الدائرية ، يستثيرني اللف والدوران وآخر ما قد أفكر فيه هو الوقوع في الخطأ .

قررت أن أقابل رئيس المدينة بنفسي ، فلديه بالتأكيد أوراقه ومستنداته التي ستطرد الريبة من مكمنها بنفسي . قابلته منذ وقت ليس بالطويل حين ناقشنا نماذج التشطيبات والواجهات بالبرج المملوك لمجلس المدينة ، طرح أفكاره وأبدى ملاحظاته على التصميم المبدئي ، لا أنكر أنه قد راقت لي رؤيته الهندسية برغم خلفيته العسكرية الواضحة . ليس كل ما يشاع صحيحاً في كل الأحوال ، فقد قالوا كثيراً إن من هم على شاكلته لا يتقنون إلا إعطاء الأوامر ...!

التعميم شيء بغيض لنفسي . لا أمانع أن أستمع لكل الأطراف فهذا هو السبيل الوحيد لتقريب وجهات النظر . أريد العمل في مناخ يحقق الإنجاز والتميز معاً ، أن أكون امتداداً لمن شيدوا تلك الصروح العظيمه من قدمائنا ، أن يتردد اسمي لأجيال وأجيال لاحقة مقترناً بهذا البناء الراسخ والمبدع للمشروع ...

هكذا أحب أن أكون !!

لكني على أية حال وبأي كيفية لا أود أن أكون جزءاً من مظلمة أحد .

لا أرغب في ذلك .. مطلقاً .

«قليل من السكر في كوب الشاي يذيب الهموم يا باشمهندس !!»

قالها « ثابت » وهو يطلب أن نريح محرك السيارة الذي ارتفعت حرارته ، مبدياً رغبته في أن نجلس على أحد المقاهي أو استراحات الطريق . سألته إن كان يعرف إحداها بشرط أن تكون «المشروبات» فيها تستحق . ابتسم ، وقال :

- نجرب حضرتك ..!

خلتها فرصة لمطالعة الأوراق في حقيبتي الملقاة على مقعد السيارة الخلفي ، شغفي لتحليل الأرقام ونتائج تحليل التربة شجعني أن أوافق ، لم أكن أطيق الانتظار حتى العودة إلى البيت ، كنا قد بدأنا أعمال التطهير السطحي للموقع ، واختصاراً للوقت - حسب التعليمات - بدأنا أعمال الحفر لأول متر من العمق . لم يعجبني ما رأيت ، كانت الأرض تحت أقدامي تبدو كالزنبرك ، لم تكن طبقاتها متجانسة ، يبدو كما لو أنها كانت ردماً أو أن الموقع قد استخدم في الماضي كمقلب عمومي للنفايات و المخلفات .

هي بتلك الصورة لا تصلح للتأسيس ... !!

لكنني .. ولأنني لست ممن يتعجلون الحكم على الأمور .. لم أشأ أن أستبق الأحداث ، أخبرت سائق الحفار أن يتوقف بشكل مؤقت ، طلبت استعجال التقارير من معمل أبحاث التربة المسئول عن الجسات .. ربما كانت فرصة لكي أستريح ...

فأنا .. بالفعل .. أحتاج لقليل من الاسترخاء .

***

سرى الخدر بأوردتي فانغلقت عيناي على ظلام دامس ...

هو أول الطريق ، وبداية استدعاء الماضي ، أعلم !

فقط أود لو أن هذا السواد ينقشع سريعاً فقد كرهته في كوابيسي منذ الصغر ، لاحت أول نقطة ضوء عند مسافة ليست بالبعيدة ، كان هناك خيالات لطفل صغير ، وكرة ، وأصوات ضحكات نقية ، ازداد الضوء سطوعاً فانقشع ضباب الصورة عن منزل قديم ذو شرفات عاليه وواجهة من الطوب المرصوص بإتقان بلا طلاء ، عند بوابة البيت .. هذا أنا ، ألهو مع الصبيان في « الحته » والعرق ينز من جبيني ، قذفت الكرة بقوة محاولاً تسجيل الهدف بين طوبتين بعيدتين .. أخطأته .. لكن الكرة استقرت عند أقدام غريبة .. كان رجلاً يحمل تلك الحقيبة المستطيلة تحت إبطه ، بدا أنه يعرفني ، اقترب ، سألني :

- أبوك فوق ؟

قلت :

- آه ...

مسح على رأسي وتركني لأستكمل اللعب بينما صعد هو للطابق العلوي ، كانت هناك شقتنا ، تهتز ستائر شرفتها البيضاء مع الهواء القادم من الشمال ، من خلفها نادتني أمي :

- اطلع يا حبيبي ..

ولأني أحبها تركت أقراني وفعلت ، ارتقيت درج البيت وصدري يعلو ويهبط من فرط التعب ، تنبجس خدودي باحمرار وسخونه ، كان باب الشقة مواربا ً ، والرجل الغريب يجلس في الصالون وقد فتح حقيبته على بعض الأدوات التي بدت لي مخيفة ، جريت لأمي وقد نبت الفزع بداخلي ، ضمتني بشده ، ثم سارت بي إلى أبي .. والضيف ، أغلقت الباب بينما لمحت دمعتين تنزلقان على وجنتيها البيضاوين ، سمعت من خلف الباب صراخي ، وبكائي الذي كان يشتد كلما شقت تلك الشفرات الحادة طريقها .. تمزق مابين فخذي، انتهى الأمر سريعا ً ، لكن الألم لم يبارحني .

لماذا تركته يا « إيزيس » يفعل بي ما فعل ؟

تقطع سكينه أعضائي ، يبعثرها في الأركان والزوايا ، و يستبيح دمي ؟!

أعلم أنك ستبحثين عن أشلائي ، لن تتركيني ، وستجمعيني كي

تعود لي الحياة مرة أخرى ، أكون فتياً من جديد ، وأستعيد فحولتي ، أهبك إبناً يأخذ بثأري ، ثم أعود لمملكتي ، في العالم الآخر مستقري ومقامي ، و عين « حورس » سوف أتركها إرثاً للضعفاء ، يعلقونها على أبواب منازلهم ، أنا لست مثلهم ، لم يهزمني الشر لأنك معي ، أملك مفتاح الحياة الأبدية ، وسأحفظ لك هذا الفضل .. فتكونين معي ، أسطورة تتردد على الأرض وفي السماء ، سنبقى أنا وأنت .. بينما هم يرحلون ، وتزول أسماؤهم .

فوق الأحجار سترسم حروف إسمي ...

سيصنعون التماثيل لي ، ولك ...

وكلما أرادوا أن يعبروا الحياة إلينا سيكون لزاماً إن يتطهروا ..

تأخذهم مراكب الشمس إلى محكمتي ..

و أنا .. لا أقبل إلا الأنقياء

فقط .. من كانت قلوبهم كقلبي .. !

ذلك الذي أتعبته الحياة ، فظل خفقه المضطرب بلا دواء !!

عاد الوشيش ينهمر من حولي ، بينما تتلاشى الأضواء ، أغيب عن التقاط أية صورة أو إشارة ، ينسحب الهواء من رئتي فتتركا شبه فارغتين ، في برزخ ضيق أسبح مختنقاً ، أحاول أن أطفو ، ولكن ..

يدهمني الغرق .

***

اهتز هاتفي المحمول فأضاءت شاشته برقم غريب ...

تـرددت قلـيلاً قبـل أن أضـغط زر الاتصـال لكننـي في النهايـة فعلت...

قال الصوت على الطرف الآخـر كلامـاً كثيـراً لم الـتقط منـه إلا نهاياته ، كان طلباً في صيغة الأمر :

« معاليه في انتظارك بعد ساعه »

أفقت من شرودي ،فأجبت :

« حاضر »

مـن الغريـب أن تكـون مصـادفة، ولكـن المؤكـد أنهـا رغبـة متبادلة!!...

كنت على وشك أن أطلـب موعـداً لمقابلتـه ، فلديـه حتمـاً مـا يمكنه أن يجيب على الكثير من تساؤلاتي ...

هل لهؤلاء الناس حق فعلاً في أرض المشروع ؟ ...

أم أنها مجرد محاولات للحصول على أية ميزات بالبرج ؟ ...

البعض يفعل ذلك أحياناً ...

حين لا يكون لديك ما تمتلك بينما الآخر يمتلك كل شيء ! ...

قد تفتعل المشكلات كي تحصل على ماليس لك ، تثور أو تفتعل الثورة .. تعارض من أجل المعارضة ، وبلا هدف سوى أن تحصل على بعض العطايا أو المنح التي لا يمكنك الحصول عليها بالطرق المألوفه .

كان مكتب سيادته في الطابق الثاني من مبنى يطل على النيل ويبعد بضعة أمتار عن الموقع ، آثرت السير على أقدامي بدلاً من استخدام سيارة الشركة ، لا داعي للرسميات أو البروتوكولات ، هي تثير امتعاضي على الدوام ، بضعة دقائق أوصلتني إلى مدير مكتبه ، قلت:

« معاليه في انتظاري »

قال :

« أعرف .. تفضل »

تعجبت أنه لم يطلب إبراز بطاقتي الشخصية ، هو العرف في مثل هذه الحالات ، كان من الواضح أنه يعرفني وإن لم يقابلني من قبل ، لعلها صدفة أخرى !! ... خمنت .

حين دلف بي إلى الداخل شعرت بالبرودة تصدمني ، للتو أتيت من حر الماكينات والغبار والصهد بينما المكتب ـ حيث دخلت ـ غارق في الهواء المكيف ، ضممت طرفي قميصي حول رقبتي وتقدمت . قابلني بوجه مدور مشرب بالحمرة ، دون أن ينظر لي قال:

« أهلاً يا باشمهندس »

ثم رفع عينيه للحظة قائلاً :

« تفضل »

وأشار إلى مقعد وثير عن يساره . جلست .

وقع بعض الأوراق دون أن ينظر إلى مضمون ما فيها ، ووضع قلمه في حامل معدني مطلي بماء الذهب ، ثم استراح بظهره على كرسيه الدوار .

سأل :

« أخبار المشروع ...؟ »

حاولت استجماع بعض البيانات من ذاكرتي ، لكنه قاطعني قبل أن أجيب :

« أنا عندي كل التفاصيل ...»

وأضاف :

« طلبتك لشيء آخر »

أثارت كلماته فضولي ، زادت دقات قلبي لسبب غير مفهوم ، أعاني منذ فترة من هذا الإضطراب ، يزيد عند القلق ، لكنه يزول مع الوقت . تساءلت :

« خير يا افندم »

أخرج من درج مكتبه صورة وألقاها أمامي ، قائلاً :

« قابلت هذا الشخص طبعاً ... ؟ »

تضايقت من الأسلوب ، لكني أخفيت مشاعري ، نظرت إلى الصورة فعرفت صاحبها بشكل سريع .. قلت :

« قابلني في الصباح .. في الاستراحة »

قال :

« طبعاً هددك .. وقال كلام عنيف .. هذا أسلوبهم دائماً !! »

أردت أن أتدخل بجملة حوار تذهب بالحديث إلى حيث أريد ، لا حيث يريد هو ، لم يتح لي الفرصة ، أردت أن أطرح عليه مخاوفي ، أن أسأل إن كان ما قاله لي ذلك الشاب صحيحاً ؟ أم أن لديه

مستندات ملكية تنهي المشكله ؟ ...

ترك كل ذلك جانباً وقال في حزم :

« سنقوم بعمل محضر في القسم .. ستقول أنه هددك .. وأنه عضو في الجماعه إياها »

وأردف :

« نوع من الإرهاب لأمثاله .. ولصالح المشروع »

سكت قليلاً .. ثم سأل :

« موافق ..؟ »

تأملت نظراته الأفعوانيه فأثارت بداخلي بركاناً من الاشمئزاز ، كان علي أن أهدأ وأتبين كلماتي جيداً قبل أن أنطقها ، لم تكن المسألة تحتاج للتردد أو إظهار الخنوع ، فأنا رغم ضعف تكويني لا أرضخ لفرض السطوة .. ولا أفعل إلا ما أقتنع به .

أجبت وأنا ألملم أشيائي :

« حضرتك شوف غيري »

واستأذنت في الانصراف دون انتظار للقبول أو الرفض .

خرجت .. والكثير من الغضب يتجمع بشراييني ، يتدفق إلى كل

أطرافي فيضطرني إلى أن أدفع بكلتا يدي كل من يعترض طريقي ، كان المكان يعج بالمنتظرين ، أصحاب الشكاوى والطلبات والأزمات ، هبطت الدرج المؤدي إلى الساحة المفضية إلى الشارع .. تلقفت الهواء النقي ملء صدري ...

وتنهدت .

***

ونحن نحتسي الشاي قال « ثابت » :

- إرحم نفسك يا هندسة !!

وكان يقصد تلك الأوراق التي أخذت أطالعها بيد بينما الأخرى ترفع الكوب نحو فمي ، لم أنتبه جيداً لكلماته ، وأخذت أدقق في محتوى التقرير . في الصفحة الأولى .. كان مقسماً لجزئين .. يشرح الأول تفاصيل القطاع المأخوذ في التربة من حيث المكونات والخصائص .. والآخر يحدد الأعماق المناظرة لتلك المكونات بدءاً من منسوب الصفر . لم يكن ما أقرؤه مطابقاً للواقع فوضعت الأوراق جانباً ...

أخذت بضع رشفات من الشاي فكانت بنفس سخونة أنفاسي ، قلت :

- في شيء غلط .

تساءل سائقي الطيب :

- خير لا سمح الله ؟! ..

وقال محاولاً أن يفهم :

- في حاجه في الورق ؟...

كان من الصعب أن أشرح له ، فمهما حاولت لن يعي ما أقول...

نظرت في ساعة يدي فأدركت أن الوقت قد تأخر بنا ، لوهلة شعرت بشيء من الحنين لابنتي « مريم » ، لم أدر السبب ، فهي لم تكن جزءاً من أية جملة حوار أو أحداث جرت خلال النهار ، لعله البحث عن النقاء في مستنقع عفن أو هروب إلى حيث يطالعني وجه البراءة ، ولعلني ـ ربما ـ أكون مخطئاً في ظنوني ...!

دفعت لـ « ثابت » ببعض النقود من حافظتي ، وقلت :

- ادفع الحساب ...

وأمرته أن نتحرك .

***

ببطء أتلمس طريقي ...

يشع المكان بأضواء كالومضات من آن لآخر ...

وكلما خبى الضوء سمعت صوتاً يأتيني كالصدى .. يتردد من حولي و يرشدني كي لا أضل ، كان آخرها يسألني :

« خايف من العتمة ... ؟ »

وقد كنت كذلك ...

شكوتها مراراً لأبي ، حين يذهب الجميع إلى فراشهم ويسود الصمت ، أسمع ذلك الأزيز يقترب من أذني ، يأتيني كصفير قطار قادم من بعيد ، تتكبل معه أقدامي بسلاسل خفية ومثلها تصير ذراعاي ، تبص في وجهي تلك الوجوه الشيطانية فأنتفض ، أحاول الفكاك ، أجرب أن أستغيث ، ينحبس لساني في جوف الحلق ، أنادي مراراً :

أبي ... أبي ...

أتعجب كيف لا يسمعني ، ولماذا لا يصحو أخي الراقد على سرير يجاورني ، كيف لا يوقظه صوت الأزيز ، أو ندائي ، أود لو يكبس زر « النور » .. يوقظني كي تنسحب تلك الوجوه من ليلي الذي صرت أكرهه .

« أجل .. أخاف .. !! »

أجبت الصوت ، فلا شيء يدعوني للخجل .

انزلقت روحي في بئر سحيقة ، لا تلامس أقدامي قاعها ، و لا انتهاء لها . في رحلة السقوط رأيتني .. في بيت جدي المطل على «التل» القديم .. أتأمل الأحراش النابتة من قاعه إلى قمته فتثير الرهبة بداخلي . أخبرني مدرس التاريخ أنه أطلال المدينة القديمة « حت - حري - إيب » ، وأن القدماء يخفون بداخله آثارهم الثمينه ، ظللت كثيراً أتردد ما بين الخوف من النزول إلى أعماقه وبين شغفي لسبر أغواره ، وددت أن أبحث عن كنوزه الدفينة ، أوشك في كل مرة أن أفعل ذلك فأصطدم بتحذيرات أمي .. وخوفها من ثعابينه وعقاربه المختفية في الجحور .

ظل « التل » شغفاً ينمو بداخلي ، أكبر فيكبر معي ، لكنني أذكر جيداً .. أنني لم أصعده يوماً .. أو أنحدر إلى داخله المليء بالأسرار .

***

قالت الممرضة :

« دكتور .. المريض .. بـ .. يتنفس بصعوبة »

سمعتها جيداً وأنا في أولى لحظات إفاقتي ...

كانت رأسي بشكل لا إرادي تتحرك يميناً ويساراً بينما يزول

تأثير المخدر تدريجياً ، شعرت بتلك الكمامة البلاستيكية توضع على أنفي ووجدتني أستقبل دفعة من الأوكسجين البارد إلى صدري . قال الرجل الذي أتى عن جانبي :

« باشمهندس » ...

« حاول تتنفس بشكل عادي » ...

حاولت ، كان لأنفاسي صوت كالحشرجة ، شيء يسد مجرى الهواء فلا ينفذ منه إلا القليل .. القليل جداً !!

دمي يتدفق إلى الرأس مصحوباً بوخز كالإبر ، الكلمات تتسارع من حولي ...

« باشمهندس » .. « باشمهندس »

« تسمعني ؟ .. »

أصابع باردة تفرك أذني .. تلطمني على وجهي .. لا شيء يتغير .. الأنفاس مختنقة .. ولا أملك القدرة على سحب الأوكسجين للداخل .. ارتعبت .

هل هي النهاية .... ؟

ألن يفعلوا شيئاً ؟! ...

كنت أعاود الدخول إلى تلك الحالة من السبات القسري ، قبل أن أغيب عن الوعي سمعت صوتاً يأمر زاعقاً :

« شغلي جهاز التنفس ... بسرعة »

***

حين عدت .. لم يكن شيئاً كما تركته قبل مغادرة المكان ..!!

الموقع .. يتحرك فيه كل شيء كخلية نحل !! .. أذكر جيداً أنني أعطيت الأوامر بتوقف العمل مؤقتاً ، أكدت ذلك لسائق الحفار ومشرف العمال . كيف لهم أن يخالفوا تعليماتي ؟!!

اهتجت ثائراً ... أشرت للسائق الجالس في « كابينة » زجاجية تسمح له برؤيتي :

« أوقف المعدة ...»

زاد منسوب الانفعال حتى وصل إلى مداه فأمرت مهندس الموقع :

« اجمع لي الناس كلهم هنا ... »

هدأ صوت ماكينة الحفر وساد الهدوء لبعض الوقت ، انبعثت في الأركان همهمات العمال ، وتبينت بعض الكلمات التي توقعتها :

« خير ..؟ »

« هو في مشكلة ..؟ »

التف الجميع في شبه دائرة من حولي ، تفحصت الوجوه تأكدت من وجود أشخاص بعينهم ، دون توجيه اللوم لأحد .. صحت متساءلاً :

« من أمر بتشغيل الحفار ..؟ »

« من يعطي التعليمات هنا ...؟ »

بدت على الوجوه بلادة أراها لأول مرة ، لم ينطق أحد بإجابة سريعة ، طأطأ بعضهم رأسه لأسفل ، والبعض الآخر ظل يتبادل النظرات في خبث . كررت السؤال في حسم :

« من أمر بتشغيل الحفار ..؟ »

تقدم مشرف العمال نحوي خطوتين . قال في هدوء :

« إهدا سيادتك ... »

« الأوامر وصلت من فوق ..»

« مدير الشركة بنفسه اتصل .. وبلغني أشتغل ! »

سكب على رأسي دلواً من ماء بارد كالثلج ، فشعرت بنفسي

أقف مبتلاً وسطهم ، لم يكن بوسعي تحسين الصورة ، أو أن أقول شيئاً يشفي ذلك الحنق المتقد بصدري . آلمني وخز شديد يتصاعد من منتصف صدري ماراً بأعلى ذراعي الأيسر ، بدأ جبيني ينضح بعرق غزير ، تثاقلت قدماي رافضة أن تحملا جسدي دون شكوى .. رمقت الجميع بنظرة لوم وتوبيخ لا ترافقها الكلمات ...

« الكل خانوك ... »

« ولا أحد معك ...»

« ماذا عساك أن تفعل ؟! »

قلت بصوت واهن جاهدت أن يسمعوه :

« انصراف ...»

« كل واحد يشوف شغله ... »

***

امتدت يد تجذبني ، وتوقف هذا الإنحدار إلى هاوية محتومة ...

كانت ناعمة الملمس ، بيضاء من غير سوء ، أضاءت كالنبراس فانجلت الظلمة عن هذا الوجه الأثير ...

هي « س » ..

تلك التي أحببتها دون أن أنطق لها بكلمة حب وحيدة !!

قالت لي :

« مبروك ..»

فعرفت أني قد حييت ، أو بعثت من جديد .

كنت قد هبطت بعض درجات من سلم عمارتهم العالية متجاوزاً باب شقتهم المفتوح ، يصدح المذياع في الداخل بصوت «حليم» وهو يغني : « وحياة قلبي وأفراحه ..»

التفتت .. و قلت لها مبتسماً :

« ... و مبروك لك»

ابتسمت . تبادلنا تلك التهنئة المقتضبة بالنجاح ، رأيت وجهها كالبدر يطل من أعلى فيضيء لي الطريق ...

لم تقل شيئاً آخر .. ولم أزد أنا ولو بكلمة ، لكنني وددت لو أنني أخبرتها عن عشق سكن بقلبي كما كانت تسكن هي بجوار بيتنا !!

كم خشيت على نفسي من السقوط فكنت أنت من تتلقفني يداها، وتقيلِ عثرتِي !

أنت التي أحببتها في البدء .. ودون انتهاء ... !

تفرقت بنا السبل بعد هذا اللقاء الـوجيز ، فكنـت تدرسـين علـم التشـريح ، والأمـراض ، وعـلاج آلام البشـر .. بينمـا أنـا أدرس الميكانيكا ، وخواص المواد ، وعلوم البناء بكل أنواع الحجر !!

اللون الأبيض يليق بك ...!!

حين أراك ترتدينه وتضمين الأزرار على هذا الجسد الممشـوق ، تضعين نظارتك الطبية عـلى عينـين سـوداوين تأسـراني دائمـاً كلمـا نظرت إليهما ، وتعلـقين تلك « السماعة » على عنق مرمري يـذكرني بـ« نفرتيتي » ووجهها الحاد في تفاصيله وتقاسيمه .

تمنيت لو أنني « إخناتون »

أردد معك أناشيد التوحيد ، في عالم تطغـى عليـه سـطوة الكهنـة وآلهتهم الباطلة !

أبني ـ وأنت إلى جواري ـ مدينتنا الفاضلة بعيداً عن دنسهم ...

فيكون لـنا ديننا .. ولهم دينهم !

أجيد ذلك .. لا تخافي .

فأنا قد درست حساب العزوم ، والقوى ، وتصميم الأساسات .

تعلمـت فنـون العمـارة و البنـاء وصـار لي أسـلوبي في ابتكـار

الواجهات الجميلة ، وتنفيذ الأبنية لكل الأغراض .

سأشيد قصر أحلامك ...

وأكون ملكاً متوجاً يجلس على عرش قلبك .

فقط أحتاج لأن يتركوا لي الفرصة لذلك ، فأنا أستشعر غضبهم .

هم لا يحبون أن يزول ملكهم بسببي ، ومن المؤكد أنهم سيحيكون المكائد لي ...

فانتبهي .. وكوني معي .

صلي معي للأله أن يحفظنا ، وأن يبسط أشعة نوره من حولنا كي نبدد ظلامهم .

حقاً ...

لم أصارحك يوماً بشيء من ذلك ، لكنني الآن أجدني مدفوعاً لأن أخبرك ...

أني .. لم أعشق أبداً أحداً غيرك !

ربما لن تواتيني فرصة أخرى لكي أعترف بما أخفيته عنك طيلة عمري ، هي لحظاتي الأخيرة ولا شك ، وعلي أن أنطق قبل أن نفترق:

أجل ... أحببتك ... جداً !

فهل .. سمعت .. اعترافي ؟

هل سمعت ؟

هل ؟

عاد الصمت ليحتويني .. فقذفته بوابل من اللعنات ، انفلتت يدي تاركة أصابعها ، ووجدت نفسي مدفوعاً بقوة تجذبني لأسفل .. أبارحها في الأعلى .. تتلاشى صورتها وتتصاغر حتى تصبح كالنقطة في صفحة سوداء ، بينما أنا سادر في السقوط .

***

أشعل « ثابت » سيجارة ليبقى تركيزه عالياً خلف عجلة القيادة .

كنت أدون بعض الملاحظات حين سألني إن كنت في حاجة لواحدة أنفث من خلالها همومي فابتسمت ، وهززت رأسي ، هو يعرف أني لا أدخن !

أزحت الأوراق جانباً ، وسألته :

- فاضل كثير ..؟

أجابني دون أن يلتفت :

- قربنا يا هندسه .

أغمضت عيني محاولاً اختلاس بعض اللحظات من الغفوة ...

كنت منهكاً لأقصى حد ...

حاولت أن أتناسى ماحدث ، لكن الأمر كان صعباً ..!!

لم أعتد شعور المهانة والانكسار ، دائماً ما أحببت أن أبدو قوياً أمام نفسي .. والآخرين ، وتجاهل دوري لم يكن مقبولاً .. لم يجبرني أحد من قبل على أن أفعل مالا أقتنع به ، ولم أسلك قبلاً أي طريق ملتو لتحقيق النجاح !!

للوصول لقرار محدد لابد أن أستجمع شتات أفكاري ...

ولابد أن أكون حاسماً مع الجميع ..!

شعرت برأسي ترزخ تحت تأثير صداع شديد ، لم يكن من ذلك النوع الذي يمكنني احتماله ، بدأت آلام صدري التي فاجأتني بالموقع تعود لتغزوني من جديد ، أخبرت « ثابت » :

- أنا ... مجهد جداً .

ومع ازدياد الأمر خطورة أضفت :

- ... عندي هبوط شديد !

أبطأ من سرعته ، ففتحت عيني ، زادت ضغطته على « الفرامـل » من شـعوري بالانقبـاض ، كـان قلبـي يسـقط في أقـدامي ، والـدماء تنسحب من عروقي إلى حيث لا أدري . بادرني بالاستفسار :

- مالك يا افندم ...؟

ولأني لم أكن أعرف بلعت ريقاً جافاً وأجبته :

- خذني لأقرب مستشفى !

***

كانت المحاولات مستمرة لإعادتي للوعي ...

ولم يكن أحد يدرك أنني بالفعل أشعر بما يجري !

ذلك الطبيب يقترح عمل « قسطرة » بعد استقرار الحالة ...

الآخر .. يقـول أن علينـا أولاً إنعـاش القلـب وتنشـيط الـدورة الدموية ، وإذا احتاج الأمر فلأنقل إلى العناية المركزة .

لايبدو أنهم يجتمعون على رأي واحد ، أما أنـا فأبـدو في حالـة لا تنبيء بالخير !!

تساءلت بيني وبـين نفسـي إن كنـت سـأتمكن مـن رؤيـة ابنتـي مجدداً .. أن أحتضنها ولـو لمـرة أخيـرة ، أن أخبـر زوجتـي بـأني -

ورغم كل شيء ـ قد سامحتها ، وغفرت لها ما كان من تقصير في حقوقي ...

إزداد الجدل من حولي .. وبدا الكل مرتبكاً على نحو يدعو للسخرية !

شعرت بأن حقنة « الفاليوم »قد هدأت قليلاً من ارتعاشي .. وإن كان النبض ما يزال ضعيفاً بشكل مخيف .. استحضرت كل نثار شجاعتي لكي أتماسك آمراً ذاتي أن تفيق ..

فـ ... أنا لن أغادر الآن ...

ولن أتركهم كي يفعلوا ما يشاءون ...

أجل .. مازلت آمل في أن أغير الكثير من الأمور

وأن أعيدها سيرتها الأولى ...

فقط ..على هؤلاء الملتفين من حولي في وجوم أن يخرجوا بي من هذا النفق الموحش والطويل ...

وليكن بعدها ما يكون .

***

قبل أن يحين موعد انصراف العمال تأزم الوضع كثيراً ...

تجمع خلف الأسوار التي لم يمض ساعات على إقامتها مجموعات من الشباب الثائرين ، ظلت إيديهم تقرع ألواح «الصاج» بإيقاع متصاعد ، انبرى لهم موظفوا الأمن المعينين من قبل الشركة ليستطلعوا الأمر ، لم يبد على أحد منهم أن لديه استعداداً للحوار ، تعالت صيحاتهم مع انضمام آخرين من مختلف الأعمار إليهم ، صبية ، رجال ، عجائز ، حتى النساء ممن كن يتمتعن بالفضول ودس الأنوف فيما لا يعنيهن قدمن حاملات أطفالهن على الأكتاف ، حاول جميع من في الموقع مساندة رجال الأمن قليلي الحيلة ، حمل البعض المعاول كنوع من التهديد واستعراض القوة ، لكن الأمور لم تكن تسير في طريقها للوصول إلى حل ...

في الـ « كارافان » الخاص بي ظللت أتابع الموقف من نافذة صغيرة ، لا أخفي أني مع حرصي الشديد على كل ذرة رمل في الموقع وكل عامل في الداخل كنت أحمل تعاطفاً شديداً مع من بالخارج من الثائرين ، لا أملك دليلاً على صحة موقفهم ، لكني أتفهم أن من يثور من البسطاء ـ أمثالهم ـ لابد أنه يمتلك الكثير من الدوافع الصادقة...

تفاقمت الأوضاع سريعاً ...

تحطم عدد من بواكي السور المثبتة على حافة الشارع الملاصق لأرض المشروع تحت ضغط التدافع ، اندفع الشباب في أعداد غفيرة

لا يمكن السيطرة عليها في كل اتجاه ، قام بعضهم بتحطيم زجاج «كابينة» الحفار ، البعض الآخر لم يجد أمامه إلا بعض شكائر الأسمنت التي كانت مخزنة للاستخدام في وقت لاحق ، قاموا بإلقائها على الأرض ، وشرعوا في تمزيقها بآلات حادة معدنية ، قام الصبية بالرقص ، زغردت النسوة ، بينما خيم على عمال الموقع صمت القبور !! ...

***

تشبث جيداً ...

حاول ألا تفلت هذا الطوق من يدك ...

لن تغرق !

حدثني صوته القوي من حيث لا أدري ، فأطعته ...

لم أكن أراه ، لكنه يراني ، وها هو يمنحني الفرصة من جديد كما كان يفعل دائماً ..!

قال لي :

« أخبرتك من قبل أنك لن تعيش طويلاً ... »

أومأت : « نعم ... »

فطمأنني :

« الآن أؤكد لك .. أني كنت مخطئاً ! ..»

« فقط .. تشبث جيداً .. ولا تفلت الطوق من يدك !! »

منحتني كلماته شيئاً من الأمن ، وطردت ذلك الخوف المحلق فوق رأسي ، هو دائماً على حق .. ذلك شيء مؤكد !!

فقد سبقني ...

وسدته التراب بيدي .. وذرفت دموعاً حارة يوم عزائه .

لم يؤمن بي أحد بقدر ما فعل ، كان الخال ، والأخ ، والصديق ، ... في وقت واحد !

حين قرأ أول كتاباتي صفق كثيراً .. وقال :

« لن تكون مهندساً فقط ! »

وأضاف :

« ستكون مبدعاً .. لاشك ! »

طلب مني ألا يكون تركيزي فقط في دراستي وأرقامي ورسوماتي، قال أن كلماتي تستحق هي الأخرى شيئاً من الاهتمام ، طلب مني أن أقرأ كثيراً .. وأن أكتب أكثر !!

صحبته في الندوات وعلى المقاهي ، نلتقي الأدباء من أصدقائه ، يلقي شعره ، وأقرأ قصصي ، عرفني بالكثيرين من النقاد على الساحة، قالوا أني أبشر بالخير .. وعلي فقط أن .. أستمر !

منحتني صلاته برؤساء التحرير الفرصة للنشر .. ووجدت إسمي لأول مرة يذيل بعض الصفحات في الدوريات والجرائد اليومية !

لم فارقتني بهذه السرعة يا « خال » ..؟

فبدونك تغير الكثير ...

لم أستمر كما أخبروني ...

أعتذر ...

فقد كان التيار أقوى مني ، جرفتني تلك الحياة الجامدة ، المليئة بالمعادلات ، والأرقام ، والاختبارات الصعبة ! ...

كان علي أن أقاوم ـ أعرف ـ لكني لم أفعل .

تخليت عن حلمي و نبؤتك ...

تزوجت ، وأنجبت ، لكني لم أشارك من أحببت حياتي وطموحاتي ، تلك التي رغبتها ، ولم تكتبها الأقدار لي !! .. خالفت

دربك ...

فسامحني ...

لكني الآن أعي حكمة الإله في ذلك ...

فها أنت الآن تمد لي يدك مرة أخرى .. كي تنتشلني من براثن الموت المحقق !

***

قبل مغادرة الموقع بقليل ..

وفي نهاية يوم مضن .. مليء بالمفاجآت .. جاءني التقرير الذي استعجلته !!

قدمه لي مهندس الموقع بعد استلامه من مندوب المعمل ، شكرت الله أن حضوره لم يكن خلال تلك الأحداث المضطربة ، كان الأمر سيبدو سيئاً ..وسيعطي انطباعاً ـ دون شك ـ لا يليق بالشركة لدى المتعاملين معها .كنت أستلقي على كرسي من الجلد الذي يكسوه التراب خلف المكتب محاولاً إراحة أعصابي المحترقة ، وفي وصوله .. وجدت الفرصة مواتية لإزاحة كثير من الغيوم عن رأسي ..!

قبل أن أفض المظروف لأطالع محتوياته دخل الساعي بوجه

شاحب .. كأنه للتو قد وقع فريسة لأحد مصاصي الدماء .. اعتذر .. وقال أن أحد الضباط يطلبني على وجه السرعة أمام بوابة الموقع وبصحبتة سيارة شرطة مليئة بالعساكر !!

« هو يوم طويل .. وصعب فيما يبدو »

حدثت نفسي ...

وضعت الأوراق على عجل في حقيبتي ، رتبت ملابسي ، وخرجت إلى حيث السيارة تقف بوجهها الأزرق القبيح.. تسد بوابة الموقع بشكل فج . هم قد أتوا دون شك يستطلعون الأوضاع بعد الثورة التي جرت وقائعها منذ قليل ، تصلهم الأخبار بسرعة كالعادة، عيونهم التي لا نراها تندس بيننا، تنقل الأخبار بسرعة البرق ...!!

لم ينزل الضابط الجالس جوار السائق ، فقط ناداني مشيراً بكف يده : « اركب لو سمحت ...»

كان هو الآخر ـ كما يبدو ـ يعرفني دون أن أبرز له هويتي !!!

فعلت ..

وانطلقت بنا السيارة ...

كانت عجلاتها تسحق الأرض مثيرة وراءها عاصفة من الغبار ، يجاورني في « البوكس » رجال جامدي الوجوه ، لا تحمل ملامحهم

أية مشاعر ودية ، كانوا ينظرون إلي في تحفز بينما الترقب يحتل كل مساحات تفكيري ، ويبعث في نفسي كثيراً من الرهبة والتساؤل .

***

استقر مؤشر النبض في حركته صعوداً وهبوطاً على شاشة الجهاز أمامي ...

كان طنينه رتيباً لكنه يبعث على الاطمئنان .

عيناي تبصران المشاهد ولكن بشكل ضبابي ... !

ها قد عادت روحي لترتدي هذا الجسد النحيل شيئاً فشيئاً ...

تلقي بظلها على الوجه الحائر المستكين على وسادة بيضاء فيراود الحياة عن نفسها ...

ولا تستعصم .. !

خلف نافذة زجاجية مربعة كان « ثابت » يعقد ذراعية على صدره، يتبادل مع الطبيب المناوب كلمات صامتة ، أعقبها تلك النظرات القلقة إلى جسدي المغطى بملاءة خفيفة لا تمنع عني تغلغل البرد إلى الأوصال ...

لا تخف يا صاحبي ..

فأنا أستشعر وجودي ما زلت .. ولم أبارحك بعد !!

حلقت بعيدا في الساعات الثقيلة الماضية ، ولكنـي ... في طريـق العودة .

راقت لي بعض الأماكن لاريب ، فرغبت البقاء بها ، ...

« س » ...

وعشقها الأثير إلى قلبي !!

كيف لي أن أتخلى عنـه وأنـا لم أطرحـه أرضـاً ، أو ألقـه يومـاً في غيابة جب عميق ؟!!

هي لم تزل من أحببت .. ومن أحـب .. ومـن لم أبـح لـه بأسـرار قلبي...

« س » ....

صارت طبيبة ابنتي ، أتردد عليها كلما اشتكت « مريم » من نزلة برد ، أو ارتفاع بسيط في درجة الحرارة ، تقـول لي : « هـي بخيـر .. لا داعي للأدويـة !! » فـأواري خجـلي عنهـا ، وأتعلـل بحبـي وخـوفي الشديد عليها .. بينما « أنـا » مـن يعـاني .. و « أنـا » .. ذاك المـريض الذي يـحـتاج إلى الدواء ..!! »...

هل لي في « وصفة سحرية » ...

أو .. « تعويذة » تشفي هذه العلة الأبدية ..؟!!!

كم فتشت عنها في أطلال التل القديم ، ممتطياً صهـوة جواد من حـطب أمسك بلـجامه بين فخذي .. بينما يميني تشق الهواء بسـيف من خشب .. وتطارد فراشات « أبو الدقيق » البيضـاء .. السـابحة في الأحراش كي تعود بصيد ثمين ..!!

تراني .. فتبتسم لي .. و تملأ أوقاتي بالبهجة والحبور ...

من يترك هذا الوجه الآسر ، وعبث الطفولة وعفويتها ، ليحارب طواحين الهواء ويطالع زيف الأوراق وأرقامها في كل وقت ..؟!!!

من يترك موسيقى أغنيات « حليم » ليملأ أذنيه بضجيج الآلات ، وهتـاف الثـائرين ، وأنـات المغضـوب علـيهم مـن المعـذبين والمطـحونين ؟

عذراً صاحبي ... فقد سئمت كل ذلك ...

حقاً ...لقد .. سئمت !!

***

توقفت بنا السيارة أمام بوابة حديدية هائلة ...

تقدم أحدهم يحمل سلاحه الكلاشينكوف على كتفـه ليـتفحص

هوية المتواجدين في صندوق السيارة الخلفي ، من بينهم كنت ، رمقني ملياً وطالع صورة في يده ثم أشار للسائق عبر المرآة بأن يتقدم...

فتحت البوابة من الداخل فتقدمت السيارة ببطء إلى أن توقفت أمام مدخل يحرسه اثنان من رجال الأمن ، هبط الرجل الجالس بجوار السائق والتف إلى أن واجهني جالساً على بضعة ألواح خشبية متلاصقة على جانبي الصندوق .. قال :

- انزل ...

فقفزت الحاجز المعدني للصندوق وترجلت ...

قال :

- ورائي لو سمحت ...

فكرت أن أسأل ..

« أين نحن ؟ .. »

و ... « في أي قسم ؟.. »

و... « لماذا أنا هنا فى الأساس ..؟ »

لكن الرجل السائر أمامي لم يكن يبدو على استعداد لتلقي الأسئلة

أو إعطاء الإجابات ، عبرنا ردهة طويلة ، تتوازى على جانبيها الأبواب المغلقة ، كانت تأتيني من خلفها بعض الأصوات ، ربما «الهمهمات» أو .. « البكاء » .. وأحياناً بدت لي تلك الحروف السابحة في الصمت كالأنين المكتوم ... !!

في آخر الردهة توقفنا .. طرق الباب على اليمين فلم يجب أحد .. أدار المقبض وقال :

- ادخل ...

وأضاف :

- ابق هنا حتى تأتي أي تعليمات أخرى ...

لاحظ اندهاشي لكنه لم يعلق ، تركني وانصرف ...

تأملت الغرفة فكانت لا تحتوي إلا على مكتب صغير ومقعدين في الأمام ـ جلست على أحدهما ـ وسجادة يكسوها تراب غزير ... ولا شيء آخر !!

علقت نظراتي بمقبض الباب متطلعاً أن يفتحه شخص ما ، يحادثني فأعرف ما المشكلة ، وما هو المطلوب مني ، أجيب على الأسئلة ، وأهم ما في الأمر أن أسأل متى يمكنني الانصراف ..! فأنا أكره تلك الأماكن المغلقة ، الضيقة ، تبعث شعوراً بالانقباض في

نفسي ، وتكبس صدري بثقل شديد ...

استطال الوقت ، وربما غفوت ، لكن أحداً لم يأتي ، ...

تركت مقعدي محاولاً إدارة مقبض الباب لأطالع الخارج أو ... أحاول مغادرة المكان .. كان الباب موصداً بمفتاح لا أملكه ..

عدت إلى مقعدي ودسست رأسي بين كفي ...

قبل أن يقتلني الاختناق .. جاء أحدهم .. اعتذر بشكل مختصر .. قال :

- اتفضل ...

وأشار لي للخروج .. عدنا عبر ذات الردهة المستطيلة الطويلة ولكن في الاتجاه العكسي ، رن هاتفه المحمول فأجاب الشخص على الطرف الآخر:

- تمام يا افندم .. خارجين خلاص ..

وأضاف :

- حضرتك الوضع هناك تحت السيطرة ..!

عند البوابة الخارجية للمبنى تركني مشيراً لي أن أذهب ، كان ما يزال يتحدث مع الرجل على الطرف الآخر .. انتبهت لآخر كلماته :

- سعادتك طالما مش محتاجه يبقى نخلي نسبيله ..!

أغلق هاتفه واضعاً إياه في جيب سرواله الضيق ، كنت مازلت أقف في شرود ، فأعاد توجيه طلبه لي في حده :

- اتفضل .. مع السلامه !!!

***

ها أنا ذا أتأهب للخروج من هذا البرزخ المليء بالأحبه ...

كلما تلاشت ظلمة المكان آخذة في التقهقر أمام بصيص النور الزاحف إلى مقلتي يتأكد لي ذلك .. ويزداد يقيني !!

تقاذفتني مشاعر مختلطة عندما أبصرت لأول مرة ، وبشكل واضح ، ذلك الوجه ذو الشفاة القرمزية ، الداكنة ، يقول لي :

- حمدا لله على السلامة ...

كان لساني ثقيلاً ، ومازلت أشعر بجفاف شديد في سقف الحلق .. أتمدد على سريري كورقة تطفو على سطح موج عاتي ، لا ثقل لجسدي ، ولا حراك بأطرافي ...

أغمضت عيني محاولاً التركيز فيما مضى من أحداث ...

هل فقدت الوعي لفترة ..؟

أم ... أجريت جراحة ما ..؟

لا أذكر .. لم يكن لدي ثمة رد .. آثرت أن أستكين برأسي على وسادتي محاولاً أن أستعيد بعض ملامح قوتي .. واستسلمت لمن حولي تاركاً لهم الفرصة لإعادتي .. كما أعرفني !!

***

حين أخبرني « ثابت » أن السيارة جاهزة للعودة بي إلى المنزل طلبت منه التمهل ...

تعودت دائماً أن أمر على كل ترتيبات الموقع لمراجعتها والاطمئنان عليها قبل ترك المكان ، أتجهز دائماً ليوم جديد بتقييم عملي في اليوم الفائت .. هي عادتي منذ أن تخرجت من الكلية وبدأت حياتي في مجال العمل بمواقع البناء .

تأكدت من أن العمل قد بدأ في إعادة بناء السور حول محيط الموقع ، وأن العمال قد أزالوا آثار التخريب في المعدات ومواد البناء التي أحدثتها ثورة أهل المنطقة منذ ساعات ، أكدت على موظفي الأمن أن يبلغوني بأية تطورات قد تحدث أثناء الليل وحتى قدومي في اليوم التالي ، أخبرتهم ألا يترددوا في الاتصال بي في أي وقت حتى وإن كان ذلك في ساعات الفجر الأولى .

كان لدي شعور بأن علي الاستمرار في آداء عملي مهما كانت الظروف ، من ورائي أسرة لا تكف احتياجاتها عن الإلحاح وطلب المزيد ، طفلة أريد أن أضمن لها مستقبلاً يفوق الخيال ، هي زهرتي التي أسقيها لتمنحني الرحيق ولوناً وردياً يزين حياتي ، أشتم عطرها كل صباح ليبعث في نفسي القوة على المثابرة والتطلع للأفضل ، تبينت أنها لم تهاتفني طوال اليوم على غير عادتها .. فأثار الأمر تعجبي، لكنني عدت فأكدت لنفسي أنني لم أكن - بأي حال - في وضع يسمح لي بالرد عليها ، فما مر من أحداث خلال اليوم لم يكن شيئاً طبيعياً ، هو أمر لم أكن قد اعتدت المرور به . أؤثر دائماً البعد عن أماكن التوتر ، لا أحب الخوض في السياسة ، أعشق التاريخ ، ولو أن أحداً سألني يوماً عن اهتماماتي سأخبره بكل سرعة وحسم :

« هو عملي .. فقط » ...

حملت حقيبتي ، وأشيائي ، وفتحت باب السيارة ، كان كل شيء على ما يرام ، يمكنني الآن أن أرحل عائداً لبيتي ،أمرت « ثابت » أن نتحرك ، آلام صدري والوخز في قلبي يعاودني لكنه يستمر للحظات ثم يروح ، لا شيء جديد ، هي ساعة أو اثنتين وسأصل إلى ملاذي ، حضن ابنتي ، ومكتبتي الصغيرة في شقتي ، أستكمل فيها مطالعة «أناشيد إخناتون» و« شكاوى الفلاح الفصيح » مع كوب من الشاي

بالحليب أعده بنفسي . تكون زوجتي في الغالب نائمة في هذا الموعد فأمارس طقوسي اليومية في آخر أنفاس الليل ، أجاهد في البقاء متيقظاً لبعض الوقت ، حتى تشبع « مريم » رغبتها في أن تلهو معي ، أكف عن قراءتي وأحكي لها بعضاً من أحاديث جدتي ، تدلل دميتها إلى جواري ، يغلبها النعاس ـ ويغلبني ـ فتنام على فخذي ، وتنكفيء صفحات الكتاب على صدري دون إرادة مني ...

حين أستيقظ في أولى ساعات الصباح أقبلها .. أحملها إلى سريرها الصغير .. وأتجهز لحمام دافيء .. يعقبه ارتداء ملابسي من جديد .. لكي أبدأ يوماً آخر .. يزعجني شعوري الدائم بأنه دون شك .. لن يختلف كثيراً عن الأمس !

***

توقفت السيارة أمام بوابة إحدى المستشفيات ...

دورة الدم في عروقي تداعى ، لا أقوى على مجرد النزول من السيارة ، حين أدرك ذلك « ثابت » حملني كطفل صغير ، هرول بي إلى قسم الاستقبال ، كان يصرخ :

« دكتور .. بسرعة !! »

كنا قد دخلنا في أول ساعات الليل ، ولم يكن هنالك من أحد ـ

فيما يبدو ـ ينتظر قدومنا ، أثارت صرخات صاحبي كثيراً من القلق لدى .. واستفزت بعض الممرضين للقدوم ...

« دكتور .. بسرعة يا عالم !! »

أبدى أحدهم الانزعاج ، وأمر بأن أستلقي على سرير الكشف .. أخرج هاتفه ليطلب الطبيب المناوب وأمرنا بالهدوء ...

انتظرنا طويلاً .. أو هكذا شعرت !

نزل الطبيب من سكنه الخاص بعدما تهاوت قدرتي على استبقاء النبض بقلبي ...

ارتدى قفازاته البيضاء في برود ، تطلع إلى ، تحسس النبض عبر شرايين رقبتي ، فبدى عليه الاهتمام ، تغيرت ملامحه وأمر الواقف إلى جواره في حزم :

« اطلب لي استشاري القلب .. وجهز غرفة العناية بسرعة »

وجدتني أنسحب من هذا العالم عبر كوة ضيقة في جدار من الظلام ...

حاولت روحي أن تغادر لكنني كنت أتشبث بأطرافها ..

لن تركبي مراكب الشمس الآن ...

فأنا لم أتجهز بعد ، لم أحمل معي مؤونة رحلتي ، ولم أودع أحبتي...

أأمل في الحصول على فرصة لكي أملأ صفحات كتابي بالأعمال الصالحة

أمتلك المزيد ، وينقصني الوقت ...

فلتشملني رحمة الإله...

و لتنصب اللعنات على الأفاقين ، والمخادعين ، ومن لا يؤمنون بيوم الحساب

هم من ينبغي أن يرحل ...

ولست أنا !!

لم أشيد مملكتي بعد ...

ولم أنقش اسمي في الخراطيش المقدسة

أعاقتني الثورة عن أن أنجز مشروعي الضخم

وانقض الكهنة على عرشي

يحاولون تسيير الأمور بأساليبهم وطريقتهم

يفرضون شرعهم على تعاليمي و يبدلون كلماتي

يلفظون بالشر ، والكذب ، ولا ينطقون بالحق

بينما أنا في منفاي البعيد .. أتعذب لآلام المغلوبين على الأمر

***

في صباح مغاير أبصرت عيناي المكان بوضوح ..

قالت ذات الرداء الأبيض :

- حمدا لله على سلامتك ...

بلعت ريقي ، وأجبت :

- الله يسلمك ...

كانت حجرتي تتزين بباقات من الورد في الزوايا ، الطلاء على الحائط لامع ونظيف لأقصى حد ، إلى جواري مقعد من الجلد وفي الأمام إلى جوار الباب مبردة مياه صغيرة ، يفصلها عن سريري طاولة مربعة تتزين بـ « فازة » من الخزف .

تمتد من ظهر يدي لأعلى أنبوب تتصل بزجاجة محلول ملحي معلقة على حامل من « الاستانليس » .. وقفت إلى جوارها الممرضة تخبرني :

- الدكتور قال إن حضرتك أحسن كتير !!

وسألتني :

- تؤمرني بشيء ؟ ...

هزت رأسي : « لا ..»

سألت :

- بقى لي كتير هنا ..؟

أجابتني أنها استلمت « الوردية » منذ الأمس فقط ، ولا تعرف الإجابة على وجه التحديد ، لكنها أضافت أنني قدمت من مستشفى قريب في سيارة إسعاف ربما من يوم أو يومين .. وأن هناك «توصية» شديدة بالاهتمام بي .. هكذا أخبروها مع تعليمات التمريض ...!

ابتسمت قبل الانصراف فأومأت : « شكراً .. »

بجوار سريري رأيت باقة صغيرة من الياسمين تحمل « كارت » تهنئة بسلامتي ، كان يزيلها توقيع مدير الشركة .. دارت برأسي كثير من الأسئلة .. فتشت عيناي عن أسماء أخرى مطبوعة على بطاقات الورود فلم تجد !

تساءلت : « أين زوجتي .. و.. ابنتي ؟ »

بحثت عن هاتفي بيدي الحرة ، إلى جانبي ، أسفل وسادتي ، وفي

أدراج « الكومود » عن يساري ، لم أعثر على شـيء . كـان هنالـك زر يتدلي عن يميني يبدو أنه لطلب التمريض ـ كما خمنت ـ ضغطته عـدة مرات ...

أتتني إحدى الممرضات على عجل .. سألت :

- تحت أمرك ؟ ... تطلب شيء ؟

سألتها :

- « محتاج اتصل بزوجتي ... »

قالت أنها ستسـتأذن الطبيـب إن كـان مـن المسـموح اسـتخدام الهاتف المحمول الآن ، وأردفت أنهم يحتفظون به في الخارج منعـاً لإزعاجي ...

رجوتها :

- ... فقط .. بسرعة لو سمحتي .

بدأت كثير من الأشياء تتضح ملامحها بالنسبة لي ...

لكنني كنت أحتاج فقط للتأكد منها !

مكالمة واحدة من هاتفي ..أتبين بعدها كـل شـيء بشـكل تـام ، لكن الشيء المطمئن .. هو أنني قد جاوزت حافة الخطر !!

لاشك ....

***

بعد غفوة قصيرة استيقظت ...

كان باب الغرفة ينفتح ببطء .. وأطلت من ورائه « مريم » بوجهها الصبوح ...

جرت بسرعة وألقت بنفسها بين يدي المفتوحتين ، من ورائها دخلت زوجتي ، ترسم على وجهها ظل ابتسامة ، تقدمت هي الأخرى ، وقبلت رأسي ...

قالت :

- ألف سلامه .. قلقنا عليك !

جلست على المقعد الوثير إلى جواري بينما قفزت « مريم » إلى أعلى السرير لتجلس عند أقدامي ، قالت في عفوية :

- اتأخرت كتير ...

اعتذرت لها :

- سامحيني .. انت عارفه الشغل !!

ثم سألت :

- هو انت ... مريض قوي كده ؟

فضحكت .. طمأنتها :

- حالياً .. لأ .. بقيت زي الحصان !!

التفتت لزوجتي ، كانت ترمقني بنظرة حانية يكسوها الخجل ، دست يدها في حقيبتها الجلدية وأخرجت هاتفي ، قالت إنهم أعطوه لها في الخارج ، ويطلبون أن أبقيه بعيداً عن وسادتي ، أكدوا عليها أن يكون أستخدامه عند الضرورة فقط .

تناولته منها شاكراً ، قلت :

- افتقدتكم ...

طأطأت رأسها ، قالت :

- و احنا كمان ....

حين رفعت رأسها لأعلى قرأت في عينيها شيئاً لا تريد البوح به ، فسألت :

- مالك ...؟

تململت قليلاً ، أخبرتني أنها لا تود مضايقتي بأية أخبار سيئة ، لكنها أردفت أنها مضطرة لأن تخبرني على أية حال ، فسوف أعرف

حتماً بالأمر ، الآن أو فيما بعد ، قالت :

- اتصل بي مدير الشركة .. كان يطمئن على سلامتك ..لكن ما أقلقني أنه .. أبلغني بأنك في أجازة مفتوحة من الآن .. وإلى أن تقوم بالسلامه !!

عقبت :

- ربما يقصد .. بسبب ظروفي الصحية .. وبعدها تعود الأمور كما كانت .

قالت أنها كانت تعتقد ذلك ، لكنه أخبرها ـ مازحاً ـ أن تطمئن .. فحتى بعد التعافي لن أعود للموقع ، وعندما حاولت أن تفهم ما وراء الكلمات أنهى حواره معها وأغلق الخط !!

تركتني لتساؤلاتي .. واعتذرت :

- لا أقصد مضايقتك .. المهم انك بخير .. ومؤكد هناك شيء غير مفهوم .. تقدر تستفسر منهم بنفسك .

قلت :

- أكيد .. سأتصل .

كانت ذاكرتي تنتعش ، مر شريط الأحداث أمامي مرتباً ، وأخذت أربط بين المشاهد بعضها ببعض ، ما جرى منها بالموقع

وما كان خارجه ، أغلقت على كل شخص تعامل معي قفص الاتهام ، مدير الشركة ، مشرف العمال ، حتى سائق الحفار لم يسلم من ظنوني .. قمت بتحليل الكلمات .. العبارات .. وتصرفات من كانوا حولي .. ما وقع أمامي وما دار منها في الخفاء من ورائي ، كانت النتيجة بسيطة ومباشرة .. مفادها أن أحداً ما لم يرق له وجودي وتصرفي ...

من هو ؟ ..

وإلى أي حد أغضبته ؟ ...

لم أكن أدري .

***

جاءني الطبيب في نهاية اليوم ...

أخبرني أن نتائج فحوصاتي جميعها مبشرة وجيدة للغاية ، يمكنني الانصراف ـ على حد قوله ـ في صباح الغد ، شكرته على الرعاية والاهتمام بي خلال فترة وجودي بالمستشفى ، أوضح لي أن جميع النفقات الخاصة بالعلاج سددتها الشركة مقدماً .. وأن علي فقط تنظيم أوقاتي بين العمل والراحة والنوم لساعات كافية .

حين انصرف وجدت الوقت مناسباً لمهاتفة مدير الشركة ، علي أن أشكره على نقلي لهذا المستشفى الخاص ، ولا مانع أن أسأله في

النهاية عن أخبار الموقع ومكاني في الشركة خلال الفترة القادمة ...

أمسكت بهاتفي متردداً للحظات .. محاولاً ترتيب عبارات حواري ، أخرجت الرقم من دليل الهاتف ، و ضغطت زر الاتصال بعد التقاط نفس عميق .. جاءتني رسالة مسجلة على الطرف الآخر تقول بأن المشترك لا يمكنه الرد الآن وأن علي الاتصال في وقت لاحق . كررت المحاولة عدة مرات لكن تلك الرسالة لم تتغير فأغلقت الخط وقررت الانتظار حتى صباح الغد .

قمت بترتيب أغراضي في الغرفة ، وضعت « روشتة » العلاج في حافظة نقودي ، دسست جميع ملابسي في حقيبة يد أحضرتها زوجتي في الصباح ، واستلقيت على سريري ، أغلقت عيني واستسلمت لنوم هادىء كنت أحتاجه منذ وقت طويل .

***

كان إحساس الوصول للبيت رائعا ...

حين ولجت من الباب حاملاً حقيبة أغراضي ، وطالعت الجدران ، لوحات الحائط ، رائحة الأنفاس ، وأخيراً أرفف مكتبتي المكتظة بالكتب والقصص والروايات أحسست بأني عدت إلى وطن كنت بعيداً عنه في سفر طويل ! ...

أعدت لي « مريم » استقبالاً مليئاً بالحفاوة والشقاوة والصخب . كانت تستشعر افتقادي كثيراً فيما يبدو ، أصرت أن تشاركني كل ما أقوم به من أعمال ، تناول الطعام ، شرب الشاي ، وأخيراً .. رفضت بشدة أن تتنازل عن مشاركتي فراش النوم !! ... لم أشأ أن أكسر خاطرها أو أن أغضبها .. فتركت لها المساحة كي تفعل ما تشاء .. لكنها لم تلحظ غياب ذهني عنها فقد كان تفكيري مشغولاً بأمر الأيام التالية ...

« البرج » ...

« الموقع المزدحم بالعمل والطموحات » ..

« مشروعي الذي خططت له من الألف إلى الياء » ...

هل بالفعل سيتم إبعادي عنه بهذه البساطة ...؟!!

حين كفت ابنتي عن عبثها ، وأصاب جفونها خدر الرغبة الطفولية في النعاس تركتها وزوجتي في سباتهما العميق ، أمسكت بالهاتف في إصرار على الوصول إلى الحقيقة المجردة . عاودت الاتصال بمدير الشركة . كانت النتيجة لا تختلف كثيراً عما سبق .. فالرقم دائماً مشغول .. راودني شعور أكيد بأنني قد وضعت على لائحة الرفض بدليل هاتفه ! .. لكنني لم أستسلم لذلك ، فهناك من

يعرف بالتأكيد بما يجري هناك . جاءتني فكرة أن أتصل بسائقي الخاص ..

« ثابت » ...

هو الشخص الأكثر قرباً مني في الموقع . بسرعة ضغت زر الاتصال برقمه المتكرر كثيراً في هاتفي .. طال رنين الجرس في أذني .. لم يكن هناك رد .. هل تراه هو الآخر يخشى محادثتي فيما قد يغضبني ؟! .. كررت المحاولة .. قبل أن أيأس من سماع الرد جاءني صوته على الطرف الآخر :

- أهلاً يا باشمهندس .. حمدا لله على السلامه .

تنهدت .. واعتذرت له على الاتصال في وقت متأخر .

قلت :

- أولاً .. شكراً على تعبك معي .. كلامي لن يوفي حقك !!

قال في حميمية لا يخفيها تباعد المسافة بيننا :

- لا شكر على واجب يا هندسه .. أفضالك علينا كبيرة !

وأردف :

- المهم صحتك أخبارها إيه ؟

أنهيت هذه المرحلة من الحديث سريعاً ، فأجبت :

- الحمد لله .. أحسن كتير .. عندي رغبة أسألك عن شيء ...

قال كأنه يتوقع سؤالي :

- أكيد حضرتك محتاج تعرف أخبار الموقع ..

أمنت على كلماته :

- ... طبعاً !

غاب صوته على الطرف الآخر قليلاً ، كان كمن يحاول صياغة وترتيب الكلمات قبل أن ينطقها .. بعد فترة لم تطل أجابني :

- والله يا هندسه .. يكفيني أقول لك ... عندي تعليمات بتوصيل مدير جديد للمشروع ... لكن بحق ... وصدقني ... الكل في الموقع يعتقد أنه لن يأتي أحد مثلك !

كانت كلماته صادمة وإن كنت أتوقعها ، ...

« بهذه السرعة يقررون ، ويتصرفون ، وينفذون ...! »

سألته متمسكاً ببصيص من الأمل ، ومحاولاً إظهار عدم الاهتمام أو الضيق :

- والموقع ... وصل لأي مرحلة ؟

أجابني :

- الحفر انتهى ثاني يوم من تعب حضـرتك .. والأساسـات .. تم صبها !!

أخبرته وأنا أعلم أن لا دور له فيما أقول :

- لكن ... التربة ... وتقرير الجسات ... التأسيس عليهـا كـدا غلط !!

قال مؤكدا ما أعرفه :

- والله .. لا علم عندي .. كلها تعليمات المدير الجديد !

تملكتني حالة من الإحباط ، والضيق ، ثم الغضب ...

لكنني لم أشأ تعكير صفو المساء لصاحبي .. تركتـه لكـي يسـتعد لقسط من الراحة والنوم قبل يوم جديد من العمل . أنهيت المكالمـة بتكرار الامتنان لوقوفه بجانبي ...

قلت بنبرة يخنقها الحزن :

- بلغ سلامي .. لكل من في الموقع .

***

النوم ... ذلك الصيد المراوغ !

أفلته في غابة مليئة بالوحوش الليلية ...

و أصبحت أنا الفريسة ..!

تطاردني الكوابيس من جديد ، فيغـزوني ذلـك الطنـين القـديم ، يستبيح رأسي ، ويكبل أطرافي .

تتقاذفني الأشباح كما كانت تفعل في صباي ، ولكنها الآن تأتيني في صورة بشرية ...

ترتدي رؤوسها أحياناً خوذات صفراء .. و تحفر رأسي بمقارع من حديد صلب ...

تنفث في وجهي دخان سجائرها الهائلة لتخنق أنفاسي ، ...

تسدد في أنفي فوهات البنادق ...

تكبـل أذرعـي وراء ظهـري و ترسـلني إلى مـا وراء الشـمس المشتعلة بألسنة اللهب ،...

فأعود بجسد محترق .. منكفئـاً عـلى أرض تتهـاوى مـن تحـت أقدامي .

تطأني الأقدام بأحذية سوداء ضخمة ..

تقذفني في عراء يمتلئ بأجساد تحمل وجهي وملامحي ...

أسمع أناتها ممتزجة بأوجاعي.. تتردد في الفضاء من حولي .

أصرخ .. وأصرخ .. ولا يأتيني أحد ...

لا ... أحد ...

***

استيقظت في الصباح أحمل صداعاً شديداً في رأسي ...

أخبرت زوجتي أني في حاجة لفنجان من القهوة ، أتناوله بينما أقرأ صحف الأمس التي لم أطالعها . فتشت في الأخبار عن شيء جديد فلم أجد . كل شيء كما تركته لم يتغير ، عبارات التأييد ، التأكيد ، الإشادة ، السياسة ، والجريمة ، والكلمات المتقاطعة ، صدق أو لا تصدق .. هذه الصحيفة تصلح لكل يوم إن أزلنا التاريخ من صفحتها الأولى ..!

قررت أن أذهب لزيارة أبي في منزلنا القديم .. فأنا أكره البقاء في المنزل في الأوقات التي ينشغل فيها الجميع بالعمل . لا أحب أن أبدو عاطلاً ، ولا أريد أن أعتاد ذلك الشعور . على عجل ارتديت ملابسي . أثار الأمر فضول زوجتي قائلة أن الطبيب نصحني بالراحة، لكنها لم تلح في طلب بقائي ، فقط حملتني ورقة مدون بها بعض احتياجات البيت المعتادة ، شاي ، سكر ، زيت ، وبعض

الأصناف من الفاكهة .. ضحكت وأنا اطوي الورقة لأضعها في جيب سترتي ، ودعتها مؤكداً أنني لن أتأخر ، وأغلقت الباب من خلفي .

عشر دقائق تفصلني عن بيتنا القديم ، فمدينتي يشطرها الطريق السريع إلى نصفين أسكن في أحدهما ويقع منزلنا القديم في النصف الآخر ، هناك بجوار التل ...

عندما شارفت على الوصول أحسست شعوراً بالارتياح ، واستقبلت دفعة من الهواء النقي في صدر يمتلىء بالزفرات المكبوتة . تبدلت حالتي إلى الدهشة والارتياب حينما اقتربت من الدخول إلى شارعنا .. فمن بعيد رأيت مجموعة من الشاحنات تتحرك دخولاً وخروجاً من الساحة الضيقة التي تفصل بيتنا عن التل ، كانت محملة بالأحجار والأتربة التي تكسوها الحشائش ، تنبعث منها رائحة أعرفها منذ أيام طفولتي ، اقتربت أكثر لأتبين الأمر ، كان هناك العديد من الأشخاص يقفون أعلى التل ، يرتدون خوذاتهم الصفراء ويشيرون إلى معدات التحميل لتوجيه حمولتها فوق عربات النقل ...

هم ... يزيلون التل ... كما أرى !!!

اخذت أعدو باتجاه بيتنا كصبي يسابق الريح ، صعدت الدرج في قفزات معدودة ، طرقت الباب بشدة ، فأتاني صوت أبي من الداخل

منزعجاً :

« حاضر .. حاضر »

فتح الباب بوجهه النوراني ، استقبلني بحضن يفوح برائحة المسك ، كان لتوه فيما يبدوا قد فرغ من الوضوء والتأهب للنزول مبكراً إلى مسجد « الإخلاص » .. ذلك الذي يحمل مفاتيحه منذ أن أحيل إلى (المعاش) ويخدمه ليلاً ونهاراً ...

ربت على ظهري ، وأفلتني من حضنه معاتباً :

« أوحشتني .. يا ولد ! » ...

نظرت إلى الأرض بأنفاث لاهثة ، قبلت يده ، واعتذرت :

« سامحني يا حاج ... ظروف عملي كانت صعبة الأيام الماضية »

أخفيت عنه حالتي التي كانت حتى لا يصيبه الانزعاج أو الخوف .. تعللت بالانشغال في الموقع ...

قبل أن يدعوني للدخول بادرته بالسؤال في لهفة :

« إيه المعدات اللي عند التل دي ؟ .. ومين الناس اللي شغالين هناك ؟ »

آثر أن أهدأ أولاً .. أمسك بيدي يصطحبني لكي أجلس معه في

الصالون العتيق سائلاً إن كنت أحب تناول كوب من الشاي المضبوط معه .. أخبرته أنني أفتقده منذ زمن وأومأت بالإيجاب :

« أكيد يا حاج ... تسلم إيدك مقدماً !! »

كانت أصوات المعدات والعربات التي تزأر محركاتها خلف الجدار تأتيني بشكل لا ينقطع مثيرة بداخلي حالة من القلق والغضب معاً ... تساءلت بصوت يسمعه أبي أمام براد الشاي في المطبخ :

« ما قلتش ياحاج .. مين اللي شغالين عند التل ؟ »

جاءني يحمل أكواب الشاي بوجه يعجز عن إخفاء الحزن .. قال:

« قالوا الأول يابني .. ها نعمل سور يحوط التل.. نوع من الحفاظ عليه .. فرحنا .. وبعد ما بدأوا اكتشفنا إنهم زي ما انت شايف ... استخرجوا له قرار إزاله ... ! »

احتد صوتي :

« إيه السبب .. أو الهدف ؟ .. ده تاريخ .. من غير المعقول يكون مصيره يشطب بجرة قلم !! »

أسند أبي ظهره إلى كرسيه حاملاً كوب الشاي بيد ترتجف ...

قال في نبرة من العجز :

« آخر شيء عرفناه .. إنهم ها ينفذوا مشروع استثماري مكانه ... بيقولوا (مول تجاري) » !!!

وأردف :

« العلم عند الله .. الحقيقة فين ؟ »

تركني لوجوم يحاصرني ، ارتشف بضع رشفات سريعه من الشاي ، ثم قام بجسد متعب ، قال :

« البيت بيتك .. أنا ها أروح أفتح المسجد »

***

بضعة أشهر مرت منذ أن غادرت الموقع ...

تشابهت أيامها فلم أشعر بها تنسرب من العمر كلص يهرب بغنيمته مسرعاً ..!

ذات يوم ...

كنت أركب سيارة « أجرة » .. أنتقل بها من محطة القطار إلى مقر الشركة حيث نقلت للعمل بالمكتب الفني ، من زجاج نافذتها شبه المحطم طالعت الشارع القريب من رئاسة الحي والذي ينتهي

بالموقع ، مددت رقبتي إلى الخارج محاولاً تأمل تفاصيل « البرج » الذي أصبح تقريباً على وشك الانتهاء ، البناء والأدوار المتكررة قد اكتملت ، الواجهات في مرحلة التشطيب ، اللافتة أمام الموقع ترسم منظوراً يحمل وصفاً للمشروع من الداخل ، عدد الوحدات ، المساحات ، وأرقام الاتصال للحجز والاستعلام !! ...

هاهم قد أكملوا كل شيء بدونك !!

في أقرب فرصة سنحت لهم ، أطاحوا بك ...

محوا حروف إسمك من خرطوشة كان ينبغي أن تتزين بألقابك

كما كانوا يفعلون في الماضي ...

لا شيء تغير !!

البيوت إلى جوار البرج تبدو ضئيلة إلى حد يدعو للسخف ، واجهاتها كابية ومتآكلة ، الشرفات تتدلى منها أحبال الغسيل ووجوه النساء الشاحبة ، الرجال يروحون ويغدون أمام البوابة الرئيسية للمشروع .. لا يأبهون لشيء ، يدخنون السجائر ، يتناولون أرغفة الخبز المبللة بالعرق في نهم ، ولا تحمل ملامحهم أية مؤشرات للغضب !! ...

هم قد اعتادوا الأمر فيما يبدو !!

لم تعد هنالك مشكلة ...

أو أن هنالك ما تم التفاهم حوله ...

ربما صفقة من نوع ما ...

لست أدري بالضبط .

ما يتضح دون شك أنه لم يعد هنالك رفض ..

والأمر الواقع .. قد فُرِضْ !!

....

حين وصلت إلى مكتبي بالشركة خلعت معطفي ، علقته على «شماعة» من الخشب بجوار مقعدي ، جلست ، أخرجت حزمة الأوراق « الفلوسكاب » من أحد الأدراج على يميني ، رتبتها وخبطت بها سطح المكتب مرتين لتتوازى حافتها العلوية ، قلبتها بأصابعي ، وفعلت نفس الشيء لتكون حافتها السفلية على نفس النسق ، وضعتها أمامي ، تناولت قلماً من حامل نحاسي تجاوره قطعة من الرخام على شكل رأس « نفرتيتي » ، أدرت القلم بين إبهامي وسبابتي ، بداخلي شيء يريد أن ينسكب على الورق ، قلبي لا

يكف عن الخفق ، ورأسي متقد بالرغبة ، ... هممت أن أفعل ...

ترددت قليلاً ...

كدت أتراجع ...

ثم بدأت ..

من جديد .. عدت أكتب !

تمت

طارق عبد الوهاب